من تراب الطريق! (٢٥٣) غدر الملوك ! (*)

تأبى القراءات العفوية إلاَّ أن تشدنى من وقت لآخر إلى مشاهد دماءٍ جرَت على جدار السلطة ! .. يحكى لنا كاتبنا الفذ يحيى حقى فى كتابه " صفحات من تاريخ مصر " - ما صادفه فى مذكرات كومانوس باشا، وهو طبيب يونانى شهير عاصر الخديو إسماعيل وتوفيق عباس الثانى، عثر عليها يحيى حقى بالمصادفة على سور الأزبكية قبل أن يلتهمه زحف الزمان .

تروى المذكرات كيف جرت نكبة إسماعيل باشا المفتش، ويقال إنه كان أخا للخديو إسماعيل فى الرضاع، وسمى باسمه، وكان عضده الأيمن وكاتم أسراره، ولكن الأيام حُوّل قَلب، ومع طلائع وصول اللجنة الفرنسية / الإنجليزية المكلفة بالتحقيق فى الوضع المالى فى مصر، توجس الخديو من الإمساك بتلابيبه باعتباره المسئول عن الإسراف الذى بدد أموال الخزانة العامة، وخشى أن يفضحه صديقه الحميم وزير ماليته إسماعيل باشا المفتش، فاعتزم التخلص منه. ولكن كيف؟ !

دعاه الخديو ذات يوم لتناول الشاى معه فى قصر الجزيرة حيث فندق الماريوت الآن، وزيادة فى إكرامه مرّ بنفسه على داره ليكون الضيف فى صحبته أثناء الطريق أيضا، ولم يكد الخديو يدخل القصر حتى اعتذر للضيف بأنه سيغيب للحظات، بيد أنه ما كاد الرجل يستقر بمجلسه فى صالون الاستقبال، حتى جاءه أحد أنجال الخديو ليصحبه - فيما قال ! -

---

(*) المال ٢٠٠٩/٥/٤

إلى اليخت الراسى فى النيل أمام القصر حيث تنتظرهم مائدة العشاء هناك . ولكن ما إن نزل إسماعيل باشا المفتش إلى اليخت، حتى أدرك أنه وقع فى الأسر، وأرسل إليه الخديو ياورا يأمره بالسفر إلى أعالى النيل، حيث تضعضعت قواه من الغم والوحدة وسوء الجو، فلم يلبث طويلا حتى لقى حتفه !

هذا ما ذكره كومانوس باشا فى مذكراته عمّا سمعه من الياور الذى أشرف على تنفيذ أمر الخديو، ولكن يحيى حقى يستوقفه أنه لم يقل مَنْ مِنْ أبناء إسماعيل شارك فى هذه المؤامرة، وتقول بعض الروايات إنه الأمير حسين كامل الذى تولى العرش فيما بعد، ولم يذكر اسم الياور، ولم يشأ أيضا أن يشير إلى الشائعات التى راجت بأن إسماعيل باشا المفتش مات مخنوقا وألقيت جثته فى النيل، وأنه استطاع أن يعض خانقه قبل أن يلفظ الروح، وأن القتل حدث فى محضر من الأمير، لكنه آثر السلامة لأنه كان على صلة بالخديو عباس الثانى، فهو لا شك يخشى من غضبه .

يروى لنا يحيى حقى، نقلاً عن مذكرات كومانوس باشا، أن إسماعيل باشا المفتش ترك ثروة طائلة، ثلاثة قصور فخمة ومئات من الجوارى، صادرها الخديو جميعاً !

هل كان إسماعيل باشا المفتش كبش ضحية أراد الخديو بذبحه أن يثبت للجنة الإنجليزية الفرنسية عزمه على تطهير الأداة الحكومية ؟! لا أحد يدرى، فقد غاب اليقين مع اختفاء الرجل الذى كان ملء الأسماع والأبصار فى ظروف غامضة !!!

يتساءل يحيى حقى : ترى ماذا كان الحديث بين الخديو وسميه وحبيبه وهما بالعربة فى طريقهما إلى القصر الذى أزمع الخديو التخلص فيه من صديقه الحميم أو أخيه فى الرضاع فى بعض الأقاويل ؟! هل أعطاه الخديو وجها ينطق بالبشر والود كالعهد به ؟! هل لمست يده يد فريسته أو كتفه بحنان وود ؟! هل تثبتت نظرته على عين رفيقه ولو برهة خاطفة ؟! أم

تراه كان يشيح وجهه عنه ويدارى الحديث، فإذا سئل أجاب فى غير ما سئل عنه ؟ هل أحس الخديو بحقارة مسلكه وهو يصطاد صديقه أو ضحيته بالغدر والخيانة ؟! هل رضى إسماعيل الخديو عن نفسه وأعجب بها لأنه أتقن تمثيل دوره ؟! وهل نام ليلته ملء جفونه غير مؤرق، أم طارده شبح صديقه الحميم الذى غدر به ؟!

لم يكتف يحيى حقى بالمشهد الذى أعطانى إياه من مشاهد الدماء التى سالت على جدار السلطة، فلاحقنى - سامحه الله - بعناء هارون الرشيد يوم مصرع البرمكى، وعناء سليمان القانونى يوم أن وقف بباب الخيمة التى يقتل فيها أعز أبنائه بأمره .. يسمع نداءه مستغيثا به أن ينقذه، ولكنه يشيح عن نجدته حتى يلفظ ابنه الفتى أنفاسه الأخيرة . دعنى أحدثك باكر عن سليمان القانونى، فقد أخذنى البحث عن قصته مع نجله مصطفى إلى كتب وموسوعات لأفتش عن هذا المشهد العجيب الذى قتل فيه الأب ابنه استجابة لمراد الزوجة الحبيبة " روكسيلانا " التى أرادت أن تخلص ولاية العهد إلى ابنها سليم الثانى فيما بعد !